المحاضرة الثانية: _ التاريخ و الاسطوره : علاقة التاريخ بالاسطورة من خلال أعمال هيرودوت التاريخيه

الاسطورة وعلاقتها بالتدوين التاريخي

أولا لا بد من الاشارة الى أن للأسطورة أهمية في دراسة الفكر الإنساني فهي أول محاولة لوضع مفاهيم فلسفية تهدف إلى إنقاض الإنسان من متاهات الجهل بأسرار الطبيعة وظواهرها. والأسطورة تمثل أولى مراحل التفكير البشري تنتيجة التأمل في ظواهر الكون وعلاقة هذه الظراهر بحياة الانسان على الأرض واهتم الانسان بتشخيصها بوصفها المصدر الأول للظواهر الكونية والمنظمة لها فالاسطورة بهذا المعنى هي الوسيلة التي حاول الانسان القديم من خلالها أن يفكر لتحميه من الخوف والقلق. وأقدم النماذج من المدونات التاريخية والأدبية التي تعتمد عليها أساطير الشرق الأدنى القديم الاساطير السومرية وقد ارتبط ذلك بظهور الكتابة.

تحديد مفهوم الأسطورة لغة واصطلاحا

مفهوم الاسطورة في اللغات الأجنبية _ كلمتان Myth أو Mythos وهذا الاصطلاح يرجع الى الاغريق إذ كانت كلمة Mythos تعني حكايات الآلهة وهي قصص تقليدية في عالم غير معروف وزمن غير معروف ومؤلف مجهول وأبطال هذه القصص من الآلهة. كما تدل الأسطورة على ما كتبه الأقدمون وتركوه من الروايات والحكايات خارقة للطبيعة البشرية.

إذن الاسطورة هي معلومات منظمة تدور حول المعتقدات الميتافيزقية أو أصول الكون أو المؤسسات الاجتماعية أو تاريخ شعب من الشعوب وأنها تسجيل للنظام الاخلاقي والذي ينظم ويشرع المواقف والأحداث.

و الاسطورة كما يعرفها " سميث ": " مزيج من كل شيء في كل شيء، فهي حكاية خالصة مستوحات من حوادث التاريخ وهي قصة سردية وهي تاريخ آلهة وهي تاريخ أبطال وهي تاريخ أجداد وهي سيرة حيوانات".

سوف نحاول في هذا المبحث أن نتعرض لوظائف الأسطورة ، وعلاقتها بالتاريخ.

وظائف الاسطورة:

مثلما تعددت تعريفات الاسطورة وخصائصها وكذا أنواعها- بل في كل جانب من جوانبها- حسب اختلاف مشارب المتناولين لموضوعها. فقدت تعددت آراؤم أيضا في وظائفها

فمنهم من يرى أنها تهدف إلى تفسير شيء ما في الطبيعة كنشأة الكون أو أصل الرعد أو الزلزال أو العاصفة أو الشجرة أو الوردة... و تقوم أساطير أخرى بتفسير التقاليد و العادات الاجتماعية و الممارسات الدينية وأسرار الحياة والموت وبعض الاساطير وضعت للتعليم. ومنهم من يرى أن أهم وظيفة تقوم بها الأسطورة هي " الغوص والتعمق في أصل الشيء حتى يمكن امتلاكه والسيطرة عليه". وإجمالا يمكن تقسيم وظائف الاسطور على النحو التالي:

_ الوظيفة المعرفية: وتشمل التأمل، التفسير، التعليل، محاولة تبسيط الظواهر للوصول الى حقيقة ما في الحاضر وتأمين المستقبل.

_ الوظيفة الفكرية أو العقائدية أو الايديولوجية:يتفق الكثير من الباحثين على أن الاسطورة كانت المعتقد الديني للمجتمعات البدائية أو بمثابة المعتقد الديني أو إمتداداً للفكر الديني، ونابعة من طقوسه.

_ الوظيفة التكفلية: هناك من لا يرى في الاسطورة تفسيراً ولا تعليلاً ولا محاولة لتبسيط الظواهر، وإنما تكفل المحافظة على وجود الجماعة ذاته وبنيانها الحضاري والثقافي، وتدعم القواعد والممارسات التقليدية ، والتي يتعرض المجتمع الى التحلل والتفكك بدونها وبهذا تصبح الاسطورة تكفلّية، أي أنها قوة لدعم وترسيخ ما هو موجود.

_الوظائف النفسية: لا يمكن لاحد أن ينكر علاقة الاسطورة بالنفس البشرية، كما لا يمكن نكران تأثيرها المستمر حتى بعد انتصار النزعة العقلانية وتحقيق التقدم العلمي، فالاسطورة وتحالفها مع الشعر يرضيان النزعة غير العقلانية المترسخة في النفس البشرية.

_الوظيفة السياسية: تلجأ السياسة الى الاستفادة من الاسطورة لخدمة أيديولوجيتها ويظهر ذلك جليا في صراع الآلهة المتعددة من خلال زوايا سياسية في فترة الحضارات القديمة، حيث كان كل اله يحاول بسط نفوذه مثلاً في تاريخ الاغريق والرومان والامم الاخرى. وفي التاريخ المعاصر يظهر ذلك في الانهيار الاقتصادي الذي حل بالمانيا، أدى الى عدم قدرتها على معالجة الاوضاع باسلوب عادي بعد الحرب العالمية الاولى، فلذا نشأت الاسطورة السياسية، المتمثلة في أسطورة الرجل الآري وظهور النازية الهتلرية، التي تهدف الى تغيير الناس، حتى تستطيع تنظيم أفعالهم والتحكم فيها.

هيرودوت ونشأة علم التاريخ

وُلد المؤرخ هيرودوت الملقب بأبو التاريخ عام 484 ق.م في مدينة هليكرناسوس بالقرب من الشاطئ الغربي لشبه جزيرة الأناضول. كانت هذه المدينة المستعمرة على صلة بالسكان غير اليونانيين في آسيا الصغرى، ومنهم الكاريين، وهم شعب خضع لسيطرة الفرس. كان لهذا الأثر الكبير على رؤيته وطريقة تفكيره، فنشأ متسامحا مع الفرس وغيرهم من الشعوب غير اليونانية.

طاف هيرودوت في البلاد، خاصة حوض البحر المتوسط والهلال الخصيب، واتسعت رقعة أسفاره إلى النوبة ومصر وفلسطين ولبنان وإيطاليا، فقد ساعده على ذلك، أنه ينحدر من وضعية اجتماعية مقتدرة ماديا، أي من طبقة أرستقراطية.

ترى جينيفر روبرتس، أستاذة التاريخ اليوناني بجامعة مدينة نيويورك، أن هيرودوت عاش في زمان فاصل بين حقبتين ثقافيتين، مقروءة ومسموعة، وفي مكان يعتبر حدا بين حضارتين مختلفتين، الفارسية واليونانية، لذا تعد أعمال هيرودوت بداية نشوء تقليد القراءة وحلولها محل السماع في الثقافة اليونانية.

ويعتبر كتابه "التواريخ" –الذي نشر قبيل وفاته– من أوائل الكتب المتداولة بين الجمهور اليوناني، واستقبل الجمهور كتاب هيرودوت باستغراب وذهول، بعد أن كانت التراجيديات والمناظرات تعقد على المسارح والقاعات.

من خلال كتاب "التواريخ"، يرجح البعض أن تكون وفاته بين عامي 430 و425 ق.م، في حين اختار آخرون عامي 421 و415 ق.م، مما يعني أنه قد عاش ليشهد طرفا من الحرب البيلوبونيسية.

كتاب التواريخ

يستهل هيرودوت التواريخ بالإشارة إلى غايته والدافع من تسطير الكتاب، قائلا "إن هيرودوت الهليكرناسوسي يستعرض هنا استقصاءاته، حتى لا تُنسى الإنجازات البشرية بمرور الزمان، وحتى لا تذهب طي النسيان الأفعال العظام، سواء كانت من صُنع اليونان أو غيرهم من البرابرة (الفرس). وبوجه خاص، لاستعراض أسباب الحرب بين الشعبين الفارسي واليوناني". كان يكتب لجمهور هيليني_يوناني، ومع أن هيرودوت كان على اطلاع واسع على أحوال بعض المدن والبلدان أكثر من غيرها، فإنه قدم لنا في "التواريخ" العديد من وجهات النظر والثقافات المختلفة، دون أن يعطي أولوية كبرى أو يظهر تفضيلا لإحداها على الأخرى، وبالأولى دون تفضيلات سياسية على العموم.

يحتوي "التواريخ" على تسعة كتب أو فصول، أولها للحديث عن منطقة الهلال الخصيب والفرس، في حين يتناول الثاني الحضارة المصرية، أما الثالث فيتعرض للغزوات الفارسية على مصر والحرب الأهلية الفارسية، وفي الفصل الرابع يتناول حياة قبائل السكوثيين الذين سكنوا واستوطنوا حوض نهر الفولغا، وما يعرف اليوم بشبه جزيرة القرم، والمتنازع عليها بين أوكرانيا وروسيا، وتستعرض الفصول أو الكتب الخمسة الأخيرة الحروب الفارسية–اليونانية.

مصادر تاريخ هيرودوت

تقول روبرتس في مقدمتها عن هيرودوت، الصادرة عن مطبعة جامعة أكسفورد، إنه طبق في "التواريخ" المنهج الإثنوغرافي في معالجة الأحداث التاريخية وكتابة تاريخ الحاضر، فلئن كان المؤرخ والجغرافي اليوناني هكاتايوس الميليتي سبق واستخدم هذا المنهج في "رحلة حول العالم"، فإن هيرودوت وسّع استخدامه زمانا ومكانا، ويظهر

هذا واضحا وجليا في تقسيم الكتب والأبواب التي اشتمل عليها "التواريخ"، لتشمل العديد من الشعوب المحيطة بالعالم اليوناني أو تلك التي تفاعل معها اليونان واحتكوا بها.

اعتمد هيرودوت على مصادر شعرية قديمة، وكذلك على ملاحظاته واستقصاءاته وأسفاره المتعددة، إضافة إلى تحليلاته النقدية للشهادات والشواهد التاريخية، واستفاد كذلك من الملاحم التي سطرها الشعراء اليونان السابقين عليه، وكذلك بعض الشهادات من أُناس عايشوا أو توارثوا حكايات شعبية عن أحداث التاريخ والحقب الماضية في اليونان ومحيطه.

إلا أن المصدر الأبرز في "التواريخ" هو المشاهدات لا مجرد الشهادات، إذ اعتمد على رحلاته الخاصة وطوافه في البلدان والممالك من أجل الاطلاع عن كثب على عادات أهل تلك البلاد ومعايشة الأحداث التي أراد تدوينها وتحليلها في وقت حدوثها.

الجانب الفكري والتنظير السياسي لهيرودوت

رأى هيرودوت الحروب الفارسية–اليونانية صراعا بين الشرق والغرب، بين العبودية والحرية، أو بين التسلط السياسي والحكم الذاتي للمجتمعات الحرة القائمة على الإقناع والمنطق، وبالتالي، فقد رأى أنه بينما يحارب اليونان عن حرياتهم ومجتمعهم السياسي الذي شهد قدرا نسبيا من الحقوق الأساسية، يُقاد الجنود الفرس بالبطش العسكري ودفاعا عن أمجاد الملوك الشخصية.

ولأجل هذا، يرى كثيرون أن تعليق هيرودوت على هذه الحروب هو من أوائل التعليقات على العلاقات بين الشرق والغرب، وحالة العداء والنزاع الذي طال أمدُه بين الحضارتين، حسب كتاب الموسوعة العربية لمؤلفها مفيد رائف العابد، ويمكن أن نعتبر هذه الفكرة من ركائز نظرية صراع الحضارات التي برزت بشكل أوضح في القرن المنصرم في كتابات صامويل هنتنغتون وغيره.

في هذا السياق يروي هيرودوت عن ديمارتوس ملك إسبرطة اليونانية، في جوابه للملك الفارسي خشايار الأول عن مدى استعداد اليونان لمجابهة جيش عرمرم كالجيش الفارسي، قوله "إن ما يقود جنود إسبارطة اليونانيين

هو "القانون، أو ما تعاقد وتعاهد عليه سكان المدينة، وهذا القانون أسمى من الرغبات والنزعات الفردية"، فاليونان حسب هيرودوت يحاربون عن حريتهم، بينما يحارب الفُرس تحت قهر الملوك وجبروتهم.

ومع دفاع هيرودوت عن الحريات اليونانية، فإنه كان منبهرا بكفاءة النظام الفارسي وانضباطه الميداني والتنظيمي، لدرجة اتهامه بأنه "محب للبرابرة"، لكن هيرودوت ظل يؤكد اتساق الديمقراطية اليونانية مع متطلبات الحياة الاقتصادية في اليونان –والقائمة على التوسع لتوفير الموارد التجارية– مع أنه لم يكن على ثقة من استمراريتها وتماسُكها.

هيرودوت والأدب اليوناني

يرى تيم ويتمارش، أستاذ الكلاسيكيات والثقافة اليونانية في جامعة كامبريدج، أن "تواريخ" هيرودوت صارت إضافة نوعية في عالم الكتابة، وأصبحت تأسيسا لعلم جديد، هو التاريخ، وكذلك لعصر جديد في الكتابة اليونانية.

وأن كتابات هيرودوت، وخاصة "التواريخ" لا تستغني على السطور والأحرف للشاعر الأسطوري هوميروس. فتماما مثلما كانت أشعار هوميروس تخليدا وتمجيدا للعظماء وأبطال الأساطير، يأتي هيرودوت ويخبرنا أنه يجمع تلك الاستقصاءات بهدف الحفاظ على الذاكرة الجمعية للأجيال "كي لا تنسى الإنجازات البشرية بمرور الزمان، وحتى لا تذهب طي النسيان الأفعال العظام".

وفي سياق آخر، تذكر روبرتس أن هيرودوت عاش في عصر اعتمد الحكايات والقصص لم يكن هناك بد من اعتماد هذا النوع الأدبي في "التواريخ"، كأن يكثر من عبارات "أذكى حيلة"، و"كُبرى الأحداث التي وردتنا"، و"أعظم أمر حدث"، و"أفظع جريمة اجترحها هؤلاء أو أولئك"، إلخ. حاولت قصصه إبراز التفوق الأثيني، فكريا واجتماعيا وسياسيا واقتصاديا.